من لبنان التاريخ الى لبنان الاستقلال

الكلمة التي القاها الاستاذ ميشال اسمر ، مؤسس الندوة اللبنانية ، في اللقاء الذى نظمته رابطة الطلاب اللبنانية حول " ميشال شيحا والسياسة اللبنانية في نادى خريجي الجامعة الاميركية مساء الاربعاء ١٩ ايار ١٩٦٥

ايها الحفل الكريم ،

هذا الذى تجمعنا رابطة الطلاب اللبنانية على اسمه الليلة ، من كان ، من هو ، وما الذى فيه ممّا يدعو الى ان نتحلق في ذكراه هنا في معقل الانكلوسكسونية ، في رأس بيروت الذى طالما تألمنا لشعورنا بانه يكاد يكون من حيث الحسّ القومي شبه منفصل عن جسد العاصمة ؟ انّ لبادرة شبان الرابطة وشاباتها اعمق الأثر في نفوسنا اذ هي تنمّ عن انفتاح عندهم على الفكر الاصيل في لبنان ، ثم هي تطمئن الى ان هذا الانفتاح يتجاوب اليوم ورغبة في اوساطهم وعند اصدقائهم في معايشة الشأن اللبناني فكرا وتوجيها . وهذا ما كنا نلاحظه السنة الحاضرة ونغتبط له في نشاطات اللجنة الثقافية لجمعية خريجي الجامعة الاميركية التي نحن ضيوف ناديها الليلة . الا بورك هذا التطوّر حيث حصل ومنعم النيات والارادات التي عملت على تحقيقه !

نجتمع هنا على اسم ميشال شيحا لنتبين مفهومه للسياسة اللبنانية . ولن نبقى في العموميات لأن زميلي الليلة على هذا المنبر سيحالجان وجهين محدّدين لهذه السياسة ، الوجه الداخلي والوجه الخارجي ، فيرسمان على ضوئهما السياسة الفضلى لوطننا .

رأى ميشال شيحا النور في بمكين من قضاء عاليه عام ١٨٩١ ، ثم حصّل علومه الثانوية في معهد الآباء اليسوعيين ، ثم سافر الى انكلترا لبعض الاعمال عاد بعدها الى بيروت ليغادرها زمن الحرب العالمية الاولى الى مصر حيث درس الحقوق وانشأ مع بعض الشبان اللبنانيين هناك مجلّة باللغة الفرنسية " EBAUCHES " (اى " محاولات ") حملت ضمّة من شعره وشعرهم وبعضا من بنات افكارهم السياسية . وتنتهي الحرب فيعود ميشال شيحا الى بيروت ليخوض معركة انتخابات نيابية عام ١٩٢٥ الى جانب العمرين بيهم والداعوق فيدخل المجلس النيابي ويسهم الاسهام الاكبر بوضع الدستور اللبناني عام ١٩٢٦ ، ثم يترك السياسة العملية لينصرف الى التوجيه السياسي فينشئ جريدة لهجور عام ١٩٣٤ ويبقى مستمرا في تدبيج افتتاحياتها طوال عشرين عاما حتى عشية وفاته . ويوم غاب ، صبيحة ذاك التاسع والعشرين من كانون الاول ١٩٥٤ ، وانتشر خبر غيابه صدى قلعة تتساقط وقمة تنهار صعق الناس لهول الخبر فعبّر عن جزعهم قلم كبير من عندنا

كتب : " لقد مات رجل وكأن لبنان اثخن جراحا " . ثم قام في مجلس الامة نائب يقول : " غياب ميشال شيحا يجعل لبنان في حداد ، وهذا الغياب خسارة جسيمة مؤلمة للمسلمين والمسيحيين على حدّ سواء . " ولقد اجمع الضمير الوطني يومذاك على ان بناة الخير في نهضة وطننا الحديثة كثيرون ، غير انهم جميعا يوافقون على ان ميشال شيحا كان معلّم الكل وان شخصية لبناننا اليوم ، في وجوده القومي والعربي والمتوسطي والعالمي ، مدينة له بتحديدها وبروزها واشعاعها .

ايها الحفل الكريم ،

بعد هنيهات سيتناول الاستاذ غسّان تويني عرض سياسة لبنان الداخلية في مفهوم ميشال شيحا ، ثم يليه الدكتور بشير العريضي فيحدّد خطوطها في الحقل الخارجي كما رسمها كبير مفكّري لبنان . ولعلّكم تتبينون من هذا ان ميشال شيحا كان رجل فكر وقلم معا ، ساعده هذا القلم بجمال اسلوبه على ان لا يستبقي تفكيره في باطنه بل ان يبلّغه الحكام في لبنان وقادة الرأي فيه والمواطنين عامّة والمحافل السياسية الاجنبية والدولية عبر افتتاحيات صحفية يومية تجاوزت الظرف الى المبدإ ، وعبر محاضرات ضمّت خلاصة تفكيره وعقيدته في كل ما يمتّ للبنان بصلة وكان للندوة اللبنانية شرف تنظيمها على منبرها في السنوات الست الاخيرة من حياته .

يتراءى لي ان قلب ميشال شيحا ما نبض الاّ بحب واحد طوال عمره . لقد احبّ لبنان فحسب ، وجعل منه عروسه الوحيدة المفضّلة . غير ان هذه العروس الحبيبة ، يوم لقيها في الواقع ، لم تكن في احسن ايامها . التقاها قبيل الحرب الكونية الاولى ثم خلالها ثم بعدها عهد الانتداب ، فاذا على وجهها مسحة من الغربة ومن الألم ومن الذكرى ومن التوق . انها لجميلة جمال الفتاة الناهدة الى النور وهي مثقلة باعباء ، مغمورة بضباب ، قلقة ، تلملم عشيرتها والجيران ليتعرّفوا الى غناها ويتبينوا شخصيتها ، حيية في بهائها تتساءل الى اين المصير . فهال ميشال شيحا ان يراها على هذه الحال وهو الذي يعرف ماضيها العريق وأصالتها ارضا وشعبا ومجيد تراث . فأخذ على نفسه ان يقف جهده على تبيان حسناتها وعلى تركيز ملامح وجهها ، فانصرف الى نفض الغبار عن هذا الوجه والى إلباس العروس ثوبها اللائق كي تستقيم بين الحسناوات صامدة مشعة كريمة جاذبة . وهذه العروس لم تكن في رأيه وليدة نزوة من داخلها او نتيجة تسوية عند الدول . انها ابنة ستة آلاف سنة من التاريخ .

الى هذا التاريخ عاد ميشال شيحا . راح يستقرئ في صفحاته المديدة ماهية عروسه . راح ينقّب عن اصلها وفصلها . راح يبحث في السلالات التي انتهت اليها . لم يترك شاردة ولا واردة الاّ تعمّق فيها . انه آمن ان لا فهم لمصير عروسه ولمصير مواطنيها دون العودة الى الينابيع التي اطلقتها والى الجذور التي

تمدّدت فيها ، دون استنطاق الصخرة والشجرة ، دون ملامسة التربة ونبش ما تحتها ، دون مرافقة الهواء في تيّاره ودون معايشة الاسلاف في ما اختلطوا به من اقوام وفي ما اكتنزوا من تراث وفي ما ابدعوا حرفا وعبادة . وخلص من كل ذلك الى ان لبنان ، عروسه ، قد يكون بلدا صغيرا وجدّ صغير حقا . ولربما هو امة صغيرة . لكنه ليس البتة بشعب صغير . وما ان استشفّ ميشال شيحا ما يصحّ ان يدعى بروح الشعوب حتى راح يحاول ان يضعه في متناول وعي اللبنانيين معاصريه .

هوذا هوذا ميشال شيحا في الخامسة والثلاثين من عمره مطمئن الى ان عروسه على ابدع ما يمكن ان تكون العرسان اصلا . فيروح طوال ثماني عشرة سنة يصوغ لها أليق الملابس التي تلائم شخصيتها ، مبتدئا بالاسهام في وضع الدستور الملائم لاوضاعها جميعا عام ١٩٢٦ ، مواصلا النضال في عرض حقيقتها لينتهي مع رفاقه الميامين الى تركيزها عام ١٩٤٣ في صميم الاستقلال الناجز . والاستقلال ، في نظر ميشال شيحا ، ليس نهاية المطاف بل بداية النهضة والتعمير . ولذا يستمرّ كبير مفكرينا في رسم الخطوط الكبرى لهذه المرحلة حتى اليوم الاخير من حياتـــه .

في صبيحة ذاك اليوم عاد تراب ميشال شيحا الى التراب ولكن بقي لنا صوته الحيّ ، على حدّ تعبير اديبنا الكبير خليل رامز سركيس .

هذا الصوت ! يا له من نبرة علوية تحسست قدسية الحرف في كل كلمة فجاء منارة طريق وهداية حياة . تغلغل في تموّجاته منذ الحداثة علم متشعّب اصيل في الشعر والادب والفن والحقوق والتجارة والمالية ، وهيمن على انطلاقه ايمان فوّاح بناء ، وخلق هو في العفاف كالبنفسج ، ومحبة هي في العطاء كالينبوع — فجاء هذا الصوت وكأنه الثقافة متأنسنة والوطنية مجسّمة والاستقامة منتصبة .

شاء ميشال شيحا دائما ان يتجنب الافراط في صوته في الحلقات الصاخبة وضجيج الشارع ، غير انه لم يبخل به يوما في كل حوار مفيد . اسمعه اصحاب السلطة وقادة الرأي وكل متعطش للحقيقة ، موزونا دسما ملهما . ولطالما كان هو الكلمة الفصل في القضايا الحيوية الحساسة والمحرّك الاخير في الاتجاهات الشخصية .

لهذا الصوت ، لبنان مدين بشيوع الحرية السياسية والحرية الاقتصادية في مبادئه القومية العامة ، وباكتناهه لرسالته التقليدية في صهر الثقافتين الغربية والشرقية العربية في نفوس بنيه . وهو هذا الصوت الذي وجه العرب الى اعتماد التاريخ والجغرافية في شؤون سياستهم الداخلية والخارجية . وهو هو الذي كان السبّاق الى التحذير من مغبة تضخم اسرائيل . وهو هو الذي عرّف المحافل الدولية ، مباشرة او بالواسطة ، دور لبنان الخاص في تنسيق الاتجاهات والاهداف في الشرق الادنى .

عاد تراب ميشال شيحا الى التراب ، انّما صوته كان نعمة من الله على لبنان . نقلته الندوة اللبنانية من على منبرها الى النخبة المستمعة الى محاضراتها ، وعمّمته بعد ذلك بالطبع في منشوراتها العربية والفرنسية ، واذاعت نبراته على موجات الاثير عبر الاذاعة اللبنانية وغيرها من الاذاعات . وانبرى لتأدية هذه الرسالة الوطنية افراد ومؤسسات غير الندوة ، فكانت مبادرات مجلة " الحكمة " ومؤسسة ميشال شيحا ، وكانت يقظة العائلة للأسهام في اضرام الشعلة . فكان هذا الوعي العام لفكر ميشال شيحا ولاعتماده اساسا للشأن اللبناني ، وكان اخيرا ، على ان لا يكون آخرا ، الدراستان اللتان تعدّ احداهما مهى سماره باللغة الانكليزية ويلقي النظرة الاخيرة على ثانيتهما بالفرنسية انطوان خير لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية . وكان لنا هذا اللقاء الحلو الليلة في رابطة الطلاّب اللبنانية حيث نستمع الى الصديقين غسان تويني وبشير العريضي . فليعش لبنان باقلام مفكريه ، بناة صرح المجد فيه ، وليجهد المخلصون من بينهم على ربط التراث فيكون لنا قيادة فكرية جديدة فاعلة تواصل القيادة المنيرة التي فقدناها يوم غاب عنا ميشال شيحا ويبقى لبنان عزيزا صامدا مشعّا !

ميشال اسمر